



حين وقع الأبوان في الخطيئة بكيا حتى بل دمعهما الثرى، إنها دموع التائبين، ويروى أن ملكاً قال لهم: هذا أطيب ماء على وجه الأرض!

قالوا: وكيف؟

قال: لا أطيب من دموع تائب نادم على ذنبه.

هل تذكر أنك ذرفت دموع ندم على مقارفة ذنب أو تفويت طاعة؛ تلك الدموع يثقل بها ميزانك، ويبرأ بها قلبك من جراحه.

لم ترقأ عين آدم حين خرج من الجنة حتى عاد إليها.

في قتل قابيل هابيل بكيا على فقد هذا وعلى جرم هذا.

الإنسان كائن (شاعر) يحس بالفرح فيضحك، وبالحزن فيبكي.

هو الكائن الوحيد الضاحك الباكى، المتعة والفرح جزء أصيل في تكوينه، والجد الصارم ينافي الفطرة.

الألم عابر لا يجب أن نبني له تمثلاً، ولا أن نجعله أساس مشاعرنا.

كان أبو ذر يحذث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في قصة المعراج:

«فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الْدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكٌ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْرِيقِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِرْبِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدُمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسْمَ بَنِيَّهُ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكٌ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى» (رواه البخاري).

قلب آدم كبير؛ اتسع لفرحة الصالحين من أبنائه إلى يوم الدين، وتألم للثائبين، وبكي من أجلهم.

أكثر ما يُحزن الأبوين هو حال الأبناء، والخوف على مستقبلهم.

أما حكاية بكاء آدم مائة عام حتى نبت الدارسين والقرنفل من دموعه فهي تهويل ليس له أصل، وجعل الله في الأبوين القدرة على التكيف مع الأوضاع المختلفة.

ومثلها رواية بعضهم أشعاراً في رثائهما لابنها القتيل:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا *** فَوْجُهُ الْأَرْضِ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي رِبَعٍ وَطَعْمٍ *** وَقَلَّ بَشَاشَةَ الْوَجْهِ الْمَلِيجُ

وهي من الأكاذيب، والشعر المذكور ركيك ومعيب ومنحول.

على أن شعر الرثاء من أصدق المعاني كما في قصيدة ابن الرومي:

بِكَاؤُكُمَا يَشْفُى وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي *** فَجُودًا فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرَكُمَا عَنِي

وقصيده في رثاء يحيى العلوى، وفيها قوله:

وَلَيْسَ الْبَكَا أَنْ تَسْفَحَ الْعَيْنُ إِنَّمَا *** أَحْرُ الْبَكَاءِنَ الْبَكَاءُ الْمُؤَلِّجُ

أَتُمْتَعُنِي عَيْنِي عَلَيْكِ بِدَمْعَةِ *** وَأَنْتَ لِأَذِيالِ الرَّوَامِسِ مُدْرَجُ

وقصيدة أبي الحسن التهامي:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِّيَّةِ جَارِي *** مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ

وقصيحتي في فقيدي "عبد الرحمن":

وَدَاعًا حَبِّبِي لَا لِقاءَ إِلَى الْحَشْرِ *** وَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِي عَلَيْكِ لَظَى الْجَمْرِ

رأى أحدهم في المنام دمعة واحدة طفرت من عينه، فسأل معبراً فقال له: قصيدة يقولها في موت ولده.

ركب الأبوان على اعتدال المزاج، وهو محمود في الفرج والحزن: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرَحِينَ {76}) (القصص)، (وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَلَأَنَّمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {139}) (آل عمران)، التعبير الفطري عن الغرائز حسن: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا يُحْزِنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ» (البخاري ومسلم).

والإيمان بالقدر يعدل المزاج: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى {43}) (النجم).

وفي الحديث: "فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تُنِيتُ الْقَلْبَ" (رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذى وقال: حديث غريب)، وقيلته تقتل الحب.

للحيوانات مشاعر محدودة تجاه نفسها أو ولدها أو من يحتك بها، وقد يبكي البعير فتدمع عينه، قال المثقف العبدى:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَلِي *** تَأْوِهُ آهَةُ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

أَكُلُ الدَّهْرَ حَلُّ وَإِرْتَحَالٌ *** أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يَقِينِي

والفن البشري في جملته تعبير متنوع عن مشاعر الفرح، والألم، والحزن، والندم، والاشتياق، والحنين، والفقد..

الدموع رمز النبل والصدق: (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ {84}) (يوسف)، (تَوَلَّا وَأَعْيُّنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ {92}) (التوبية).

إنهم يحاولون ألا يرى الناس دموعهم، حتى في الدم هناك درجة من التمثيل!

وربما اغتبط أحدهم بحضور دمعته وإجهاسه أمام الملاء؛ ليكسب تعاطفًا أو يحوز ثقة!

استحضار الكآبة والألم ليس محمودًا ولا متعبدًا به، إنما يؤجر العبد على الصبر والرضا.

جربت أن أدعم عوامل السعادة والمتعة حتى تتغلب على نقايضها، فوجدت السعادة تفترش حياتي حتى في المواقف الصعبة، وصار السرور مزاجاً عاماً لا يُغيّره ألم عابر.. وصرت أُعتبر عن حالة السعادة وأتحدث عنها حتى تبرمج عقلي الباطن عليها.

الحزن مؤلم في لحظته، ولكنه كثيراً ما يصبح ذكرى ممتعة تعبر عن زوال الهم والبلاء، وتبدل الحال، والروح والفرج، وتعطي مادة مغربية للحديث.

أعجبني تعبير شعبي عن ألم الفراق لم أقرأه إلا وتجدد تفاعلي معه وكأنني أطالعه للمرة الأولى.

تلكم هي قصيدة "عايرة سبيل" من الكويت لزوجها قبيل وفاتها إثر مرض عضال:

ترى الذبايج وأهلها ما تسليني *** أنا أدرى أن المرض لا يمكن علاجه

أدري تبي راحتي لا يا بعد عيني *** حرام ما قصرت إيديك في حاجه

خذها وصيبة وأمانة لا تبكيني *** لو كان لك خاطر ما ودي إزعاجه

أبيك بيديك تشهدني وتسقيني *** وأمانتك لا يجي جسمي بثلاثجه

لف الكفن في يديك وضف رجليني *** ما غيرك أحد كشف حستناه وإحراجه

أبيك بالخير تذكرنى وتطرينى *** يجيرنى خالقى من نار وهاجه

سامح على اللي جرى ما بينك وبيني *** أيام نمشي عدل وأيام منعاجه!

إنها دموع النهاية التي لا تُنسى ضحكات البداية!

موقع الدكتور سلمان العودة

المصادر: